جمعت بين حبّ المسرح ورسالة الطبّ لخدمة الناس

رئيسة الفريق التقني في منظمة الصحة العالمية
الدكتورة أليسار راضي:
الصدفة فتحت أمامي الأبواب وشخصيتي تكفّلت بالباقي

طبيبة متخصصة في طبّ العائلة، اختارت تخصص الطبّ "بالصدفة"، وبالصدفة عينها دخلت رحاب منظمة الصحة العالمية من بابها العريض، حيث تدرّجت وتعلّمت وأعطت من كلّ قلبها وطاقتها، فأثمرت جهودها أهمّ برامج منظمة الصحة العالمية في لبنان من تسعينيات القرن الماضي إلى اليوم. يوم نجحت في امتحانات الدخول، لم تكن تتوقّع أن يتمّ اختيارها، لأنها متخرجة حديثا ولا تملك الشهادات أو الخبرات الكافية، ولكنّ "شخصيتها" كانت هي سبب وقوع الإختيار عليها كما عرفت لاحقا، وهذه الشخصية هي التي فتحت لها الأبواب في ما بعد لتحقق ما حققته في مجال الصحة العامة، إنها رئيسة الفريق التقني في منظمة الصحة العالمية لبنان الدكتورة أليسار راضي.

ولدت الدكتورة أليسار راضي في غانا، تلقت علومها في لبنان وكانت على مدى ١٣ عاما الأولى في شعبتها. كانت ميولها الدراسية تقودها إلى دراسة فنّ المسرح، نظرا لما تتمتّع به من شخصية ديناميكية وقدرات مسرحية أساسها حبّ التمثيل والتقليد بالإضافة إلى «كثرة الكلام» كما تقول... حبها للمسرح دفعها إلى العزم على الإنخراط في هذا التخصص في الكلية الملكية البريطانية للمسرح، فراسلت الكلية وبدأت تحضير الأوراق المطلوبة بعد قبول طلب انتسابها... ولكن الصدفة لعبت دورها في حياتها وغيّرت مسارها العلمي من حيث لم تكن تتوقّع أو تريد. فصديق شقيقتها نصحها بأن تتقدّم بطلب دراسة الطبّ في الجامعة الأميركية في بيروت حيث يتابع دراسته، لما يعرفه عنها من تفوّق دراسي وقدرة على النجاح في هذا الإختصاص، ولكنّ هذا الأمر لم يكن أبدا في بالها، هي التي تحلم بالمسرح والفن الذي يجعلها قريبة من الناس ويشبه شخصيتها الديناميكية المحبة للحياة، يساندها في ذلك والدها الذي نصحها بالإبتعاد عن الطبّ لأنّ حياة الطبيب صعبة ومعقّدة ومتعبة ولا تشبه شخصية ابنته التي يريد لها حياة سهلة وجميلة تشبهها... وبالرغم من ذلك وبالرغم من الوضع الأمني في العام ١٩٨٢ الذي كان يقسم بيروت بين شرقية وغربية ويخلق معابر حدودية بين مناطق المدينة الواحدة، قررت أن تجرّب. قدّمت امتحان الدخول وسافرت إلى قبرص مع عائلتها هربا من المعارك، وهناك تلقت ردا من الجامعة الأميركية في بيروت بنجاحها في امتحانات كلية الطب وحلولها الأولى في امتحان اللغة الإنكليزية التي تتحدّثها عادة مع أفراد العائلة، بالرغم من أنها خريجة مدرسة فرانكوفونية... ورغم نجاحها، نصحها الوالد بعدم دراسة الطب، ولكنها أقنعته بضرورة المحاولة، على الأقل في انتظار استكمال أوراق الإلتحاق بالكلية الملكية للمسرح في بريطانيا... وهكذا كان. «دخلت وعلقت» كما تقول، أحبّت الطبّ وأحبّت فيه القاسم المشترك الوحيد ربما بين الطب والمسرح: الناس...

وهؤلاء الناس وحبها لأن تكون معهم وبينهم، هو الذي دفعها إلى التخصص في طبّ العائلة بدلا من الجراحة، بالرغم من نصائح أساتذتها وبينهم رئيس قسم الجراحة التجميلية في مستشفى الجامعة الأميركية آنذاك.

الدخول الى منظمة الصحة العالمية

سبعة أشهر فقط مرّت على تخرّجها، قبل أن تتقدّم بطلب الدخول إلى ميدان عمل منظمة الصحة العالمية، «بالصدفة» أيضا، بناء على نصيحة أحد أساتذتها الذي أخبرها عن فتح باب مباريات الدخول إلى أحد المراكز في المنظمة... ورغم أنها لم تكن «قابضتها جدّ» نظرا لصغر سنها وضآلة خبرتها وشهاداتها بالنسبة إلى هكذا مركز، قدّمت الطلب ومباراة الدخول في العام ١٩٩٤، لتتفاجأ باختيارها، ليس لشهاداتها وخبرتها، بل «لشخصيتها»... هذه الشخصية التي تجمع بين حب الناس والديناميكية والقدرة على التواصل، التي اعتقدت يوما أنها مناسبة لدراسة المسرح، أثبتت لاحقا أنها المدخل والأساس للنجاح في مجال الصحة، وبخاصة الصحة العامة. وعن هذا الأمر تقول: «من دون القدرة على التواصل وحب العمل مع الناس، كيف تستطيعين إقناعهم باعتماد برنامج صحي م ا؟ كيف تستطيعين إقناع أمّ بضرورة تلقيح ولدها إذا كنت تفتقدين إلى القدرة على التواصل معها بالإقناع، ومع الطفل بالحب والتودد لعدم إرعابه من الحقنة مثلا...؟»

رحيل وعودة

برنامج «السيدا»، كان أولى البرامج التي عملت عليها الدكتورة راضي في منظمة الصحة العالمية، بعد أن أكملت هي ووسّعت ما كانت الدكتورة جيهان طويلة قد أسّسته، بعد أربع سنوات من العمل في إطار هذا البرنامج، سافرت إلى هارفرد حيث حازت من جامعتها على دبلوم في تطوير الأنظمة الصحية، بدأت بعده فعليا مراحل العمل على تطوير النظام الصحي ودعم الإصلاحات الصحية. بعد ثلاث سنوات انتقلت الدكتورة راضي إلى العمل في إطار برنامج ال «UN AIDS» في عمّان لمدة ستة أشهر بعد استقالتها من منظمة الصحة العالمية في لبنان إثر خلاف مع أحد المدراء، ثم عملت لستة أشهر أيضا كخبيرة إقليمية مع «اليونيسيف» وكذلك مع البنك الدولي، قبل أن تنتقل إلى العمل كخبيرة مناطقية مع «صندوق الأمم المتحدة للسكان» لمدة سنتين. وفي تموز من العام ٢٠٠٥، عادت إلى منظمة الصحة العالمية في لبنان كرئيسة للفريق التقني. ورأت في عودتها راحة كعودة الرحّالة، لأنها تحب لبنان والعمل في لبنان، ليس على الطريقة الفولكلورية الشعرية، بل «بناء على قناعة شخصية بأن بلدها يحتاج إلى الكثير وعليها أن تكون جزءا من الجهود العاملة على النهوض به، وبناء على قناعة شخصية أيضا بأن اللبنانيين هم شعب قادر وصاحب طاقات كبيرة وقدرة ممتازة على العمل وإعطاء أعظم النتائج في أصعب الظروف، بدليل النجاح الذي يقدمه مثلا قطاع المستشفيات أوالجمعيات الأهلية وغيرها من المؤسسات التي أثبتت ريادتها بالرغم من الظروف القاسية...» أما ماذا ينقص لبنان واللبنانيين لتحقيق التطور المنشود فهو برأيها أمران: «نظرة موحدة إلى المستقبل وقيادة ناجحة. ينقص لبنان واللبنانيين هذه النظرة الموحدة الجامعة إلى الأمور وإلى ماذا يريدون للمستقبل، كما ينقصهم القيادة الناجحة أي الدولة، وهو أمر في يد اصحاب القرار على المستويات العليا كرئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء، الأمم المتحدة لا تستطيع أن تحل محل الدولة فالحوكمة والقيادة والريادة هي للدولة، أما الأمم المتحدة فدورها تقديم الإستشارات والدعم التقني والتدريب والمساعدة في رسم الاستراتيجيات والخطط... وعدم الإستقرار السياسي هو السبب الرئيسي لتباطؤ عدد كبير من مشاريع التطوير على الصعيد الصحي، ورغم ذلك تمكنت منظمة الصحة العالمية في لبنان من دعم عدد كبير من المشاريع، بينها برنامج الإعتماد للمستشفيات، ومراكز الرعاية الاولية، بالإضافة إلى العديد من البرامج في مجالات مختلفة كترشيد استعمال الأدوية ونظام مراقبة الجودة في قطاع الادوية، تطوير برامج وزارة الصحة مثل الصحة النفسية والامراض المزمنة ومرصد الامراض السرطانية ومرصد الوفيات والولادات، بالاضافة الى دعم عدد كبير من الدراسات بهدف استحداث وتطوير ورسم استراتيجيات صحية للقطاع الصحي وخطط لسدّ الثغرات، الإستجابة للطوارئ، القدرة على استيعاب الكوارث، تدريب الكوادر، وغيرها من البرامج التي كنت مشاركة فيها كمحور أساسي، لدعم وزارة الصحة وبالتعاون مع الشركاء الصحيين الآخرين. وغالبية هذه البرامج تمّت في أصعب الظروف التي مرّ بها لبنان من العام ١٩٩٤ وحتى اليوم.»

في خدمة لبنان

حبّها للبنان ترجمته برفض العروض المتوالية للعمل في الخارج، وبخاصة بعد العام ٢٠٠٥، فكلّ ما تعرفه وضعته ومازالت تضعه في خدمة لبنان، والذي تعرفه لم تتعلّمه فقط من أساتذتها بل أيضا من زملائها وحتى مساعديها. «لا أنسى مثلا أستاذي في الجامعة الذي علّمني بروتوكولات نص الرسائل، أو أول مدير لي في منظمة الصحة الذي كان يعطيني فرضا يوميا للمنزل كي أتعلّم ما يجب أن أتعلمه في بدايات عملي، وما زلت حتى اليوم أستشيره في أمور كثيرة، فأنا ما زلت حتى اليوم أتعلّم من الناس الذين دعموني ونوّروني...»

لم تتعذب الدكتورة راضي في حياتها المهنية على الأقل- كما تقول- بمعنى أن الأبواب فتحت أمامها بتلقائية وعفوية، أي «بالصدفة» التي

تراها مرافقة لها في حياتها، ولكن الصدفة «تفتح الأبواب»-تقول- «أما إثبات الذات للإستمرار فهو أمر آخر، لا يتمّ إلا بحب العمل والعطاء من كل القلب ومن كل العقل ومن كل الطاقة.» وحب العمل في مجال الصحة العامة يعني حب الناس وحب التواجد معهم، وهو أمر كان السبب الرئيسي لدخولها مجال الطب، ولذلك، لا ترى نفسها اليوم إلا طبيبة، وتحديدا طبيبة عاملة في مجال الصحة العامة، متعاطية مع الناس على الأرض، واضعة جانبا شهادات الإجازة والجدارة وال١١ دبلوما إضافيا، ل«تتعلّم» ماذا يريد الناس وكيف يفكرون، ل«تتفاهم» معهم كيف تستطيع تقديم الخدمة الصحية لهم، والشخصية التي تتمتع بها خدمتها كثيرا في التعاطي مع الناس وتدوير الزوايا، والقدرة على التفكير السريع واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، بالإضافة إلى تشكيل صلة وصل بين القاعدة ورأس الهرم، أي الناس وأصحاب القرار «لجعل هؤلاء الآخرين يتخذون القرارات المناسبة ويحسّنون أداءهم...»

عرض على الدكتورة راضي مرتين أن تكون هي من اصحاب القرار هؤلاء أو من أصحاب التأثير، من خلال اقتراح ترشحها إلى النيابة، ولكنها رفضت «لكي يبقى الناس يحبوننا»- كما تقول مازحة، ولكن يمكن أن تفكر في احتمال توليها إحدى الوزارات المتعلقة بخدمة الإنسان كالبيئة أو الصحة أو الشؤون الإجتماعية، «بشرط أن تكون الظروف ملائمة لاتخاذ القرارات السليمة وتنفيذها بعيدا عن جميع أنواع الضغوط، وهو أمر ما زال مستبعدا في لبنان، حتى الآن على الأقل.»

تطمح بعد إلى دراسة «علم الإنسان» (Anthropology) لكي تتعلّم أيضا كيف يتفاعل الإنسان بيولوجيا ونفسيا وسلوكيا مع البيئة التي يعيش فيها، تمضي بعض أوقات فراغها مع عائلتها الكبيرة، والبعض الآخر توزعه بين هوايات ثلاث: الخياطة، الإهتمام بالحديقة، والقراءة. والهواية الأخيرة لا تحب ممارستها على شاشة الإنترنت بل على صفحات الكتب الورقية الحقيقة، فغالبية أمسياتها تمضيها بين ضفتي كتاب، أمام التلفزيون المضاء على وضعية ال mute... والقارئة

النهمة كما تصف نفسها، هي أيضا مشرفة على أطروحات طلاب الماستر في الكليات الصحية لثلاث جامعات، لها سلسلة محاضرات، وكاتبة سلسلة منشورات في مجال الصحة العامة، بينها مقالات في «الصحة والإنسان». وإذ ترى في مجلتنا تنوعا ملفتا وعملا موضوعيا يصيب الهدف ويساهم في التثقيف الصحي على جميع الصعد، يدفعها تواضعها إلى القول: «ولكن لماذا اخترتموني لباب «روّاد»؟ أنا لست رائدة...!»

لارا سعد مراد

عندما تم اختيار الدكتورة اليسار راضي كرائدة في هذا العدد، لم تكن على علم مسبق بهذا القرار الذي اتخذ من خارج اجتماع هيئة التحرير تقديرا لجهودها ونشاطها اللافت في القطاع الصحي.

والحق يقال، وبدون اي مجاملة، من يتعرف الى الدكتورة اليسار راضي عن قرب، يكتشف تلك الطاقة الايجابية التي تتمتع بها شخصيتها المحببة، والتي تحمل اليك الشعور بانك تعرف هذه السيدة الشفافة بمواقفها، والحكيمة بآراها منذ مدة بعيدة، لتشاطرها الرأي وتناقشها بما تريد ان تعرفه وتتعلم منها الكثير الكثير.

بدون شك، الشأن العام الذي انخرطت فيه اكسبها الخبرات العلمية الواسعة، ولكن هذا لم يمنع من ان تكون بتواضعها حاضرة دائما لاي مساعدة او خدمة بدون الطمع باي منصب او مركز.

ويبقى ان نقول: اليسار راضي انت حقا امرأة لبنانية رائدة، باندفاعك، بحيويتك الدائمة وتستحقين كل التقدير.

رولى راشد